

وسائل إصابة النفوس باليأس:
استخدام الاتهامات الملفقة بمعادة السامية كسلاح لإسكات الأصوات الناقدة لأفعال إسرائيل

بقلم أولي ديمير

تشارك إسرائيل في حملة لا تتوقف لمصادرة أراضي الفلسطينيين وانتهاك حقوقهم لأكثر من ستين عاما. اعتمدت قدرتها على القيام بذلك، بوجه خاص، على ثلاثة عوامل:

- التفوق العسكري الطاغي
- استقطاب الرأي العام خاصة في الولايات المتحدة وأوروبا
- جعل يهود الطبقة العاملة بإسرائيل يعتقدون أن دعم النخبة الصهيونية بإسرائيل، وليس مشاركة عامة الفلسطينيين في دعم قضيتهم، في صالحهم.

لا يمكن التصدي للهيمنة العسكرية الإسرائيلية بفضل الدعم الغير مشروط والغير محدود بالتكنولوجيا العسكرية والمعدات المتقدمة المقدم من الولايات المتحدة وحلفائها، بما في ذلك كندا. مع ذلك، لم تتمكن هذه الهيمنة من تحقيق هدف إسرائيل النهائي وهو إرغام الفلسطينيين على التوقف عن المقاومة وعلى تقبل ظلمهم ومصادرتهم للأراضي والحقوق. فلقد قوبلت الهجمات المستمرة الإسرائيلية بإصرار المقاومة الفلسطينية التي رفضت تقبل ظلم الاحتلال رغم التفاوت.

صنعت هذه المقاومة الفلسطينية شبكة دولية من الدعم والتضامن تتسع بمرور الأيام. ظهرت الحركات والمنظمات التي تطالب بالتزام إسرائيل بالقانون الدولي ومبادئ العدالة الأساسية في عشرات الدول ومئات المجتمعات.

ترى إسرائيل وحلفاؤها أن هذه الحملات الدولية تهدد خطير. لقد تهربت إسرائيل من العقوبات التي طبقت على دول أخرى لانتهاكها حقوق الإنسان والقانون الدولي لمجرد أن الولايات المتحدة تستخدم حق النقض بشكل تلقائي ضد أي محاولات لمساءلة إسرائيل. كذلك تعتمد إسرائيل على تدفق المساعدات الأجنبية الضخمة سنويا حتى ليكاد المرء يوقن بانهييار الدولة في حال عدم تدفق هذه الأموال التي تدعمها من الخارج.

لذا يمثل أي شيء يقوض الدعم العام في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا تهديد للدعم الخارجي الذي يعتمد عليه وجود دولة إسرائيل. تتجاهل أغلب الحكومات التي تغض الطرف عن انتهاكات القانون الدولي التي ترتكبها إسرائيل الرأي العام بها، إلا أنه يمكن تغيير هذا الأمر إذا أصبح دعم إسرائيل عائق سياسي خطير. بهذا يصبح الشيء المؤرق لإسرائيل هو التراجع الملحوظ للدعم الذي يقدمه اليهود المقيمين في الولايات المتحدة وكندا، خاصة الشباب. سيصبح الدعم الأجنبي بأكمله في خطر إذا توقف اليهود عن دعم إسرائيل.

يصاحب تهديد الشرعية الدولية لإسرائيل خطر داخلي أكبر وهو أن يبدأ اليهود في إسرائيل إدراك أن التركيبة الصهيونية، التي تمثل في جوهرها دولة عسكرية تنتهج سياسة الفصل العنصري وتفرض القيود على الفلسطينيين، هي النهاية.

إذا رأت الطبقة العاملة من يهود إسرائيل أن مصلحتهم لا تتواءم مع مصلحة النخبة الحاكمة وإذا اعتقدوا أن مصلحتهم على المدى الطويل ستتحقق إن عملوا مع الفلسطينيين على بناء دولة ديمقراطية علمانية يحصل فيها الفلسطينيون واليهود على حقوق متساوية، ستجد الطبقة الحاكمة نفسها في نفس الموقف الغير مستند إلى منطق، الذي واجهته النخبة البيضاء بدولة جنوب أفريقيا التي كانت تنتهج سياسة الفصل العنصري في بداية التسعينيات. يدور بالفعل جدل حول كيفية مواجهة التغيير الديموغرافي، حيث يتزايد عدد اليهود الإسرائيليين الذين يغادرون البلد بينما يتزايد عدد السكان الفلسطينيين.

للمقاومة الفلسطينية وما تلقاه من دعم دولي دور كبير في تغيير طريقة إدراك الآخرين لإسرائيل. يتجه الرأي العام الدولي لعدم غض الطرف عن التطهير العرقي وهدم المنازل والإهانات الممنهجة والاعتقالات والتعذيب وارتكاب جرائم القتل بحق المدنيين والأطفال والبالغين دون تمييز.

اتجهت إسرائيل نحو اعتماد مزيد من القمع ضد المقاومة الفلسطينية السلمية كرد فعل لتراجع مصداقيتها ودعمها. تعد قرية بلعين، التي تقف ضد التوسع الاستيطاني الإسرائيلي الغير قانوني، أحد مراكز هذه المقاومة من خلال وقفات احتجاجية سلمية أسبوعية بدأت منذ خمس سنوات جعلت القرية رمزا عالميا للمقاومة السلمية. تستخدم إسرائيل أساليب أكثر تطرفا من تحرش وأفعال وحشية لتقويض البلدة وإنهاء الوقفات الاحتجاجية التي ترى أنها تضر بصورة

إسرائيل أمام العالم. تنتهج أساليب مشابهة من تحرشات واعتقالات ضد الفلسطينيين الذين يقاومون ويهود إسرائيل والنشطاء بالخارج الذين يتضامنون معهم ويدعمون القضية الفلسطينية.

في ذات الوقت الذي تحاول فيه إسرائيل أن تقضي على المقاومة الدولية، أطلقت دولة إسرائيل بمعاونة أتباعها في الولايات المتحدة وكندا حملات دعائية شديدة العدوانية بتمويل ضخم من أجل أن تحول دون تراجع الدعم المقدم لإسرائيل.

من السمات ذات الدلالة لهذه الحملات عدم التركيز على محاولة تبرير سلوك إسرائيل، مما يجعل المرء يعتقد أن المسؤولين عن هذه الدعاية يدركون استحالة تفسير جرائم الحرب وانتهاكات حقوق الإنسان بطريقة يقبلها الرأي العام الدولي.

عوضاً عن ذلك، تركز الاهتمام على محاولة منع نقد إسرائيل عن طريق استهداف أكثر النقاد جرأة بانتهاج أساليب تشهير واضحة ورقابة صريحة.

ومن أمثلة ذلك في الحرم الجامعي لعدد متزايد من الجامعات التحرش بأساتذة الجامعة المنتقدين لإسرائيل وإطلاق النار عليهم مثل نورمان فينكلستين وجويل كوفيل. وأيضاً محاولات منع بعض الأنشطة والمناسبات مثل أسبوع سياسة الفصل العنصري الإسرائيلية.

نرى في كندا الآن محاولة لإسكات أي نقد موجه لإسرائيل من خلال وسمه بمعاداة السامية لإثارة مشاعر الكراهية ضده. لهذا الأسلوب ثلاثة أهداف وهي قمع الوعي العام بما تفعله إسرائيل والتشهير بالنقاد عن طريق وصفهم بالمعادين للسامية والحفاظ على استقطاب اليهود من خلال إرهابهم بشبح معاداة السامية.

تشارك حكومة هاربر الكندية الداعمة لإسرائيل في هذه الجهود، حيث منعت تمويل المجموعات التي تدعم الفلسطينيين في مطالبهم بالعدالة. وكذلك أنشأت هيئة برلمانية لإيجاد السند القانوني لجعل نقد إسرائيل عمل غير شرعي.

إذا نجحت حكومة هاربر في عمل ذلك فإنه ستعد عبارات مثل العبارات التالية، التي تعبر عن المبادئ العامة لحقوق الإنسان والقانون الدولي، خطاب معادي للسامية في كندا:

"يجب أن تكون الدولة لكل مواطنيها"

سيصنف قول هذه العبارة على أنه قول معادي للسامية لأنها تشير ضمنا إلى أنه على إسرائيل خدمة وتمثيل كل المواطنين سواء كانوا إسرائيليين أم فلسطينيين.

"لكل شخص ولد في دولة أو يقيم فيها بصفة دائمة لمدة لا بأس بها من الزمن أن يحصل على حق المواطنة."

يصنف قول هذه العبارة على أنه معادي للسامية لأنه يعني أن من حق الفلسطينيين، الذين يعيشون تحت حكم الدولة الإسرائيلية، أن يصبحوا مواطنين إسرائيليين.

"يجب أن يكون كل مواطني أي دولة متساوين أمام القانون وأن يحصلوا على كل حقوق وامتيازات والمواطنة وعليهم مسئولياتها. لا ينبغي على أي دولة أن تتبع سياسة التمييز ضد المواطنين على أساس ديني أو اثني أو عنصري."
سيعد هذا القول معادي للسامية لأنه يعني ضمنا أنه على إسرائيل تفكيك نظامها القانوني القائم على التمييز وسياسة الفصل العنصري.

"يجب على كل دولة أن تقبل حدودها المعترف بها دوليا وألا تطالب بضم أي أراضي أخرى لا تقع ضمن حدودها."

سيصنف هذا القول ضمن الأقوال المعادية للسامية لأنه يعني أن على إسرائيل التوقف عن الاستيلاء على الأراضي التي تقع خارج حدودها.

"يجب على كل الدول أن تلتزم بالقانون الدولي بما في ذلك اتفاقية جنيف والقوانين التي تجرم العقاب الجماعي والتعذيب... إلخ"

سيصنف هذا القول ضمن الأقوال المعادية للسامية لأنه يعني ضمنا أنه على إسرائيل التوقف عن التورط في التطهير العرقي والعقاب الجماعي والانتهاكات الأخرى للقانون الدولي.

"للاجئين حق العودة للأراضي التي هجروا منها من قبل أي جيش غازي أو قوات احتلال."
سيصنف هذا القول على أنه معادي للسامية لأنه يعني السماح للاجئين الفلسطينيين الذين هجرتهم إسرائيل من وطنهم للعودة حسبما نص القانون الدولي.

"ينبغي تطبيق عقوبات على الذين ينتهكون القانون الدولي"
سيصنف هذا القول على أنه معادي للسامية لأنه يعني ضمنا أنه على إسرائيل مواجهة عقوبات للتورط في ممارسة العقاب الجماعي والتطهير العرقي وأعمال التعذيب وارتكاب جرائم حرب ومخالفة قرارات الأمم المتحدة والمحاكم الدولية والقيام بمخالفات قانونية أخرى.

تعد محاولات حظر النقد مثل التي تقوم بها إسرائيل من خلال وسمه بمعاداة السامية تهديد خطير يجب كشفه ومجابهته. ينبغي أيضا في ذات الوقت تعريف هذا التهديد بأنه وسيلة لإصابة النفوس باليأس أصبحت ضرورية نتيجة المعارضة المتزايدة للجرائم التي ترتكبها دولة إسرائيل.

يعد اللجوء إلى القمع الواضح الصريح مظهر من مظاهر فقدان السيطرة على الأمور. لم تكن مثل هذه الوسائل ضرورية في الماضي لأن نقد إسرائيل كان على هامش الجدل العام بينما أصبح الآن اتجاه عام، حيث يشعر الذين يدعمون الدولة الإسرائيلية العنصرية، التي تعتمد سياسة الفصل العنصري، بالتهديد الذي يتزايد باستمرار. ينبغي أن يتشجع أمثالنا ممن يدعمون دولة ديمقراطية علمانية حتى وإن كان النصر في هذا الصراع بعيد المنال.

أولي ديدير هو كاتب اشتراكي كندي وناشر ومسؤول عن جمع وتنظيم الأرشيف ويشغل أيضا منصب منسق منظمة كونيكشينز التي تعد مكتبة تضم مؤلفات ذات صلة بالعدالة الاجتماعية على الشبكة الدولية للمعلومات وموقعها الإلكتروني هو www.connexions.org. موقع السيد أولي على الإلكتروني المسمى "استطادات جديدة" هو www.diemer.ca.

Ulli Diemer
www.diemer.ca